

## شعب وحاميتها: قرية شعب الجليلية والدفاع عنها ياسر أحمد علي

بيروت: المنظمة الفلسطينية لحق العودة (ثابت)، 2007. 295 صفحة.

## مخيم برج البراجنة: ظل الموت والحياة أحمد علي الحاج علي

بيروت: المنظمة الفلسطينية لحق العودة (ثابت)، 2007. 198 صفحة.

شاعت خلال الحقبة المنصرمة التي أعقبت خروج قوات المقاومة الفلسطينية من لبنان في سنة 1982 فكرة استعادة الجذور بالكلمة والصورة معاً، وانصرف البعض إلى الكتابة عن القرى الأصلية التي تحدر منها، وعن منابت الأهل ومساقطهم. ولعل هذه الظاهرة الرومانسية التي تطورت كثيراً في مخيمات سورية ولبنان بالدرجة الأولى، كانت نوعاً من التعويض الطبيعي أو المعادل النفسي لابتعاد فكرة "التحرير". حتى إن تيار "حق العودة"، الذي انتشر بقوة بعد توقيع اتفاق أوسلو في سنة 1993، ربما يفسر، إلى حد ما، كيف أن فكرة العودة، ولو بالكلمة، ما زالت تعود إلى احتلال مكان الصدارة في الخطاب السياسي الفلسطيني كلما انحسرت أفكار التحرير والكفاح المسلح. وهذا يبرهن، إلى حد مقبول، أن حلم العودة إلى فلسطين ما زال ينبض في مخيلة جميع الفلسطينيين أكانوا في مخيماتهم الكثيرة أم في منافعهم المتعددة.

إلى جانب هذه الظاهرة، ازداد الاهتمام بأماكن اللجوء الحالية، أي المخيمات المتناثرة هنا وهناك، وصارت العودة إلى بدايات اللجوء في هذه الأماكن جزءاً من الذاكرة الفلسطينية؛ فالمخيم، وإن كان في حد ذاته علامة النكبة وشارة الهزيمة معاً، إلا أنه، في سيرورته البشرية، المكان الذي حمى الفلسطينيين من الذوبان، وأعاد إنتاج الهوية الوطنية، علاوة على علاقات التآلف ثم الانضواء في أشكال من التضامن الاجتماعي الموروث والمتجدد معاً. بين مخيمات سورية ولبنان ثمة مباراة حقيقية في الكتابة في حقل البلدانيات. ويبدو لي أن أغلبية القرى التي تحدر منها معظم لاجئي هذين البلدين العربيين ستنتقل، بالتدرج، من المخيلة إلى أوراق الكتب في غضون أعوام قليلة، وستكون بين أيدينا، بفعل التراكم الكمي، سجلات شاملة، إلى حد كبير، عن كل قرية وبلدة ومدينة في الجليل الفلسطيني المحتل.

في هذا الميدان أصدر ياسر أحمد علي كتاباً وافياً عن بلدة "شعب"، وأصدر أحمد علي الحاج كتاباً عن مخيم برج البراجنة. وهذا الجهد هو شوط جديد في مسيرة الكتابة عن بلدانية فلسطين وعن مخيمات الفلسطينيين يضاف إلى جهد الذين سبقوهم في هذا الشأن أمثال حسين لوباني في كتابه عن "الدامون"، وأبو ماهر اليماني في كتابه عن "سحمتا"، ومحمود دكور في كتابه عن "قديثا"، وعبد المجيد العلي في كتابه عن "كويكات"، وأحمد عطية وحسن عطية في كتابهما عن "علما"، وغيرهم الكثيرين طبعاً. وهذان الكتابان يتكاملان معاً ليشكلا جانباً من رواية اللجوء الفلسطيني إلى لبنان، وخصوصاً أن قسماً من أهالي قرية "شعب" استقر في مخيم برج البراجنة.

### (1) شعب وحاميتها

يُعد هذا الكتاب الذي قدم له الدكتور محسن صالح مدير "مركز الزيتونة"، وكتب خاتمته حسين لوباني، دراسة شاملة تروي تاريخ هذه القرية القديمة. ويستفيض الكاتب في سرد أسماء عائلاتها وأثارها وجوامعها وكنائسها، والمقامات والمزارات الموجودة فيها، ولا يترك مهنة أو حرفة إلا أدرجها في هذا الكتاب، بالإضافة إلى أسماء الحرفيين الذين كانوا يمارسون هذه الحرفة أو تلك مثل الإسكافي والداية والمطهر و"قالع الأسنان"، إلخ. ولاحظ الكاتب أن هذه القرية كانت عصية على الأحزاب السياسية، والحزب الوحيد الذي كان له حضور بين أبنائها هو "حزب النجادة". ومثل أي دراسة بلدانية أخرى، فالكاتب يسترسل في الكلام على الأغاني التي كان الناس يشدون بها في الأعراس والولادة والظهور والأطفال وعودة الحجيج. وفي هذا السياق يتحدث عن "حادي فلسطين"، أي الشاعر المعروف يوسف حسون، ويسجل له أشعاراً وافية، ولا ينسى أن يعيد إلى الذاكرة صراع العائلات (الطوشة)، مثل "طوشة الخطيب - فاعور" و"طوشة الأسدية"، وذلك كله استناداً إلى روايات جمعها من بعض المصادر

المطبوعة ومن أفواه بعض الناس، ولا سيما تلك التي تتعلق بمقاومة أهالي "شعب" للقوات الصهيونية في سنة 1948، ويعدد أسماء شهداء هذه القرية. فضلاً عن ذلك، يحتوي الكتاب على 36 صورة عن "شعب" حالياً مأخوذة من الإنترنت، ومن بعض أبناء هذه القرية.

ثمة ملاحظة عامة تسري على معظم الكتب البلدانية التي تصدر في هذه الأيام، وهي مدى صدقية الروايات الشفوية، ولا سيما أن الاهتمام بالتاريخ الشفوي بات على درجة كبيرة من الشيع في الوسط الفلسطيني. إن الكثير من الشهادات مأخوذة من أشخاص لم يتجاوزوا العشرة أعوام، أو أكثر قليلاً، في سنة النكبة. ومثال ذلك شهادة المدرس "ز.ك." في هذا الكتاب، والواردة أيضاً في كتاب روز ماري صايغ "الفلاحون الفلسطينيون: من الاقتلاع إلى الثورة" (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1980). إن هذه الشهادة لا يمكن الركون إليها تماماً، لأن صاحبها غادر قريته وعمره 12 عاماً فقط، فهو من مواليد سنة 1936. وفعلاً يجب الاحتراس من شهادة من كانوا أطفالاً في تلك الفترة، لأن الأحداث تختلط في ذاكرتهم بما شاهدوه حقاً، وما سمعوه من المرويات اللاحقة للأهل والأقارب. وفوق ذلك، كان في الإمكان، بل كان من الأفضل الاستغناء عن الفصل الأول من الكتاب الموسوم بعنوان: "مدينة عكا وقضاؤها"، فهو أثقل على الكتاب، ولم يضيف إليه أي فائدة، وإلغاؤه لا يضير الكتاب على الإطلاق.

## (2) مخيم برج البراجنة

قدم لهذا الكتاب الرئيس سليم الحص. وهذا الكتاب تاريخ مفصل لمخيم برج البراجنة منذ يوم وطنته أقدام اللاجئين الفلسطينيين في سنة 1949 حتى اليوم. وبهذا المعنى، فهو يسرد إحدى روايات اللجوء المشبعة بالقسوة والأمل معاً. فهؤلاء اللاجئون القادمون من كويكات والكابري وترشيحا والشيخ داود وشعب والغابسية والخالصة وسعسع وسحماتا ودير القاسي والبروة وعمقا وصفد وفارة وعكا وصفورية ونحف وميعاد، هبطوا هذه البقعة لأنهم وجدوا في المختار حسن السبع روحاً من الإلفة والتضامن عزّ نظيرها؛ فهو الذي استضافهم، وجهد في تقديم العون لهم وتسهيل إقامتهم. وما زال سكان مخيم برج البراجنة، حتى اليوم، يحفظون له، ولأبنائه، هذا الجميل الذي لا ينسى، والذي زاد عليه حمايته إياهم في إبان مجزرة صبرا وشاتيلا.

في أي حال، فهذا الكتاب، على عادة الكتب المثيلة، يبدأ بمأساة اللجوء، فيتحدث كيف أن مصطفى الجرشي الذي قتلت أمه في الغابسية أخذته إحدى العائلات اليهودية وتربى في أحضانها حتى أصبح ضابطاً في الجيش الإسرائيلي (ص 22). إن هذه الرواية تشبه، إلى حد مطابقت، قصة خلدون في رواية غسان كنفاني "عائد إلى حيفا". مهما يكن الأمر، فالكتاب يتضمن تاريخاً للسياسة وللوقى السياسية التي انتمى إليها سكان المخيم، مثل حزب البعث والقوميين العرب والهيئة العربية العليا والحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب النجادة وحزب التحرير. وقد كان للحزب السوري القومي، بحسب معرفتي، حضور جيد بين أبناء المخيم، واستشهد في صفوفه كثير من الفلسطينيين، بينهم محمد راغب قبلاوي من ترشيحا. غير أن هذه المرحلة راحت تتلاشى بالتدرج بعيد ظهور "قوات العاصفة" وصعود أفكار الكفاح المسلح. وفي هذا الميدان يقدم الكاتب تفسيراً أولاً لانتماة أهالي المخيم إلى الفصائل المقاتلة، فيرى أن أهل الكابري التحقوا، بقوة، بالفصائل المسلحة لضعف البنية العشائرية في صفوف أبنائهم، أي أن الغياب النسبي لزعيم العائلة أتاح للأبناء حرية اتخاذ القرار. بينما كان ولاء معظم أهالي "كويكات" للحاج أمين الحسيني. أما أهل ترشيحا، الأكثر تعليماً واندماجاً في المجتمع اللبناني، فقد التحق معظمهم بحركة "فتح". ويلاحظ الكاتب أن كثيرين من شبان قرية "شعب" التحقوا بحركة "فتح" لسبب بسيط هو أن أهاليهم كانوا في معظمهم يتبعون، في فلسطين، الطريقة الشاذلية، وكان خالد اليشريطي ابن شيخ الطريقة عبد الهادي اليشريطي عضواً في حركة "فتح" (كان سابقاً قيادياً في حزب البعث)، ولهذا تبعه كثيرون من أبناء قرية "شعب" والتحقوا مثله بحركة "فتح". لكن شباب قرية "الشيخ داود" انقسموا بين "فتح" و"الجبهة الشعبية - القيادة العامة".

يشرح الكاتب بداية ظهور الإسلاميين في المخيم، وبداية تحول الناس إلى التدين بعدما كانوا أقرب إلى العلمانية البسيطة بتأثير من فصائل الثورة الفلسطينية المعاصرة. وهو يعيد هذه البدايات إلى ما بعد سنة 1982، أي إلى خروج قوات الثورة الفلسطينية من لبنان حينما بات الفلسطينيون في العراق بلا حماية. آنذاك، يقول الكاتب، راح المجتمع الفلسطيني في المخيم يميل إلى التدين، وزادت أعداد المصلين في الجوامع، وزادت أيضاً أعداد النسوة اللواتي يرتدين غطاء الرأس. ولم تكد سنة 1984 تطل حتى أسست "الرابطة الإسلامية لأبناء فلسطين" التي أعلنت في سنة 1996 ارتباطها التنظيمي بحركة "حماس"، ثم ظهرت حركة الجهاد الإسلامي على يدي سيد بركة الذي كان يقدم بعض الدروس الدينية في مسجد فلسطين.

قصارى القول إن هذا الكتاب الذي تتخلله 46 صورة، والذي يُعتبر سجلاً أولياً فيه أسماء شهداء مخيم برج البراجنة، وأسماء الرابطات القروية (7 رابطات) والمؤسسات والاتحادات والجمعيات الأهلية (32)، علاوة على أبرز شخصيات هذا المخيم من حملة الدكتوراه والكتّاب والسفراء ومديري الشركات والمدارس إلخ، أغفل، بغير قصد على الأرجح، كلاً من محمود شريح وسامية محمود قبلأوي (أو سامية عيسى) من أسماء الكتّاب والصحافيين، بينما أدرج اسم علي فيصل بين الكتّاب (حتى لو كان له بعض الكتابات إلا إن صفته الأساسية هي صفة سياسية بالدرجة الأولى). ولا أرغب في قياس هذا النقصان على بقية فصول الكتاب على الإطلاق.

ص. أ. ف.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
[http://www.palestine-studies.org/ar\\_index.aspx](http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx)